النقدُ العربيُّ القديم
والوعيُ بأهميّةِ الأجناس
الأدبيّة مقولاتُ الجاحظِ،
وابنِ وهب الكاتب مثالاً

Classical Arabic Criticism
and Cognizance of the Importance of Genres
(Essays from Al-Jahidh and Ibin Wahab Al-Katib)

أ. د. فاضل عبود التميمي
جامعة ديالي / كلية التربية

Prof. Dr. Fadhal `Abud Al-Tameemi,
College of Education, University of Dyala

... ملخص البحث ...

تريد هذه الدراسة أن تدقّق النظر في المقولات النقديّة التي قال بها ناقدان عربيّان مهمّان أعني: الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه المهم: (البيان والتبيين)، و ابن وهب الكاتب (٣٣٥هـ) في كتابه: (البرهان في وجوه البيان)، اللذين عاشا تجربة الكتابة النقديّة في قرنين مزدهرين من قرون الحضارة العربيّة الاسلاميّة، وهذه المقولات تتماس بوضوح مع فكرة الأجناس الأدبيّة التي كان لها عبر القرون منطلقات نظريّة، وإجراءات سعت لأن تصف إشكاليّة الأدب، وما يتفرع منها من أنواع، وأشكال تتقدم واجهة المعنى الأدبي، وتسهم في تقديم رؤية أدبيّة عن الكون والحياة.

إنّ تدقيق النظر في المقولات السابقة لا يعني القفز على التصورات الثابتة قفزاً ميكانيكيّاً غير مسوغ، أو مسؤول، إنما يعني الوقوف عند الطبيعة النقديّة للمقولات نفسها، وفهمها، وهي تنتمي إلى مجالها الأجناسي المنظّم في حدود ممارسة نقديّة تنمّ عن وعي مبكّر في جذور قضيّة لّما تزل تشغل حيّزاً واضحاً في الفكر، والممارسة النقديّة المعاصرة.

... Abstract ...

The current study sheds light on the critiques achieved at the hand of important Arab critics; Al-Jahidh (255 Hegira) in his significant book Al-Baian Wal Tabeen [Evidence and Evidence Finding], and Ibin Wahab Al-Katib (325 Hegira) in his book Al-Burhan Fi Wajah Al-Baian [The Proof at the Face of the Evidence],both experienced the critical writings in two prosperous centuries from the centuries of Islamic Arab Civilization. Such critiques come in parallel with the idea of genres having,throughout history, theoretical ploughs and procedures endeavouring to describe the controversy of literature. What ramifies from the genres comes as a façade to literary content and takes part in having a literary vision about universe and life.

Scrutinizing the former critiques never means leaving settled visions without reason, but it means explicating and fathoming the sense of criticism of the these critiques themselves, as they appertain to the systematic genre orbit in respect to

the process of criticism. Such designates palpitating perception to the roots of the issue that takes great importance to intellectuality and practicing the modernist criticism.

... المدخل ...

تتّخذ قضيّة الأجناس الأدبيّة موقعاً مهمّاً، وأساسيّاً في متن (نظريّة الأدب) التي تُعدّ منجزاً أمميّاً يشكّل خطابه وجهاً متقدّماً من وجوه المنجز الحضاري الذي تتفرع منه شجرة إبداع الحياة الممثّلة بالأدب، وأجناسه، والفن وأنماطه، ومع صعوبة الإقتناع بوجود تعريف واحد للأجناس الادبيّة؛ لأنّ ((مقام الكتابة أجناسي))(١) في الأساس، فإنّ هذه الدراسة ترى أنّ أجناس الأدب اختزال منظّم لشكل الكتابة الأدبيّة في كلّ عصورها يفضي الى تبيّن المزايا الخاصّة باللغة الادبيّة، والحدود الفاصلة بين أشكالها، والجنس الأدبي في واحد من تعريفاته: ((اصطلاح عملي يستخدم في تصنيف أشكال الخطاب، وهو يتوسط بين الأدب والآثار الأدبيّة))(٢)، لغرض الإحالة على خارطة الأنواع، والأنماط، والأشكال، وهي تتقاسم سلطات الفصل بين النصوص آخذة بنظر الإعتبار أنّ الفصل لن يكون ميكانيكيّاً يفضي إلى العزلة التامّة المفارقة لمحيطها، وإنما هو فصل بين مكونات لسانيّة تمتد ما بينها أواصر التشاكل والاختلاف، وهدف الجنس الأدبي في شكله النهائي ضبط الأثر، وتفسيره(٣) بقصد الإسهام في قراءة الأدب، وتلقيه.

لا شكّ في أنّ العقل النقدي بمدياته الزمنيّة المتوالية قد استوقفته فكرة تجنيس الأدب، أو تنويعه بعد أن قطع الأدب نفسه شوطاً بعيداً في تأكيد وجوده، وهذا يعني أنّ فكرة التجنيس كانت لاحقة لوجود الأدب، وانتشاره؛

لأنها ببساطة فكرة نقديّة قامت على تأمل شكل الأدب، والبحث في هويته الأجناسيّة من خارج منظومة الأدب؛ ولأن الأدب بنية تتضمن تعقيداً مركّباً متنوع البناءات، والرؤى، وليس قضيّة ميسورة تنطوي على عمل ساذج ومحدود؛ لأنها فضلاً عن كلّ ما ذكر تتطور تاريخيّاً في صورة انجازات فرديّة دائمة الجدّة من دون أن تبلغ الغاية أبداً، فتطورها ليس له غاية، أو نهاية يكتمل عندها(٤)، بمعنى أنّ أجناس الأمس هي بالضرورة ليست أجناس اليوم، أو غداً.

إنّ الأدب بحاجة لأنْ يُنَظَّم في أشكال كتابيّة تضمن له حدوداً معروفة، وصفات ثابتة شأنه شأن موجودات الكون حيّة كانت، أو جامدة، وهذا يعني أنّ الذائقة الإنسانيّة بما تملك من قدرات كانت قد تقبّلت فكرة تقسيم الأدب على أجناس بوصفها مبدأ تنظيميّا لا يصف الأدب وتاريخه بحسب الزمان والمكان، وإنما بحسب بنية النوع الأدبيّة المتخصصة، وتنظيمها(٥)؛ ولهذا حافظ كلُّ جنس على خصائصه الأسلوبيّة المتجانسة التي يمكن أنْ ينطبق عليها تعريف (فنسن) الذي يرى أنّ الأجناس، أو الأنواع: ((صيغ فنّية عامّة لها مميزاتها، وقوانينها الخاصّة، وهي تحتوي على فصول، أو مجموعات ينتظم خلالها الإنتاج الفكري على ما فيها من اختلاف وتعقيد))(٦).

عُنِيَتِ الدراساتُ النقديّة الغربيّة منذ وقت مبكّر بقضيّة الأجناس الأدبيّة وكان همُّها الإشارة إلى الجهود التي انتظم خلالها خطاب المقولات الفاصلة بين جنس، وآخر وصولاً الى تحليل ظاهرة تنظيم البنى الأدبيّة بين الأجناس، وقيام الحدود الفاصلة بينها، وعلى الرغم من سعة الأجناس تلك، وتداخلها، وانفتاحها على بعضها، وتعدّد القول فيها.

ففي تاريخ الفكر الإنساني القديم وُجدت فكرة تحديد الأجناس الأدبيّة ضالتها الأولى في الخطاب الفلسفي اليوناني القديم الذي اجتهد في تحديد الأدب بالأشكال: الأجناس المعروفة: الشعر، والملحمة، والدراما وقد ابتكر لها صيغاً نظرية، ومقاربات نصيّة جعلت الحدود ممكنة لكل منها(٧)، وهذا يعني أن التفكير الأجناسي قد واكب التفكير الإنساني، ولا يزال مستمرّاً إلى اليوم بوصفه ممارسة تنظيمية تستهدف تجميع المتشابهات، وتمييز المختلفات اعتمادا على نوع من الاستقراء، والوصف للظاهرة المراد توصيف مكوناتها وتمييز عناصرها؛ وذلك بوضع أطر مرجعيّة يستند إليها لضبط ظاهرة ما، وإدراكها بيسر(٨)، ويقيناً أن هذه الأشكال: (الأجناس) لم تفقد سحنتها الخاصة، بل حافظت بقوة على ملامحها الأساسيّة المشكّلة لها على الرغم من أنّ كلّ شكل منها تغيّر مظهره خلال المراحل التاريخيّة، وساعد على إيجاد أشكال فنّية فرديّة من خلال تعبير الأشكال نفسها عن خاصيّة المضمون المتطور عبر التاريخ(٩)، وهذا يعني أنّ الجنس الأدبي الواحد قادر على إيجاد أجناس أدبيّة أخرى خلال التطور الكمّي، والنوعيّ للأدب نفسه، وهو يعيش في حاضنة تاريخيّة متحركة.

تاريخيّاً كان لأرسطو (٣٢٢ ق. م) أثرٌ مهمٌ في تشكيل الخطاب النقدي الأجناسي في العالم كلّه، جاء في مقدمة: (فن الشعر) الذي ظهرت فيه سمات التجنيس الأولى: ((أمّا الفن الذي يحاكى بواسطة اللغة وحدها، نثراً أو شعراً –والشعر إمّا مركّباً من أنواع، أو نوعاً واحداً– فليس له اسم حتى يومنا هذا: فليس ثمّة اسم مشترك يمكن أن ينطبق بالتواطؤ على تشبيهات سوفرون، واكسينرخوس، وعلى المحاورات السقراطية، أو على المحاكيات المنظومة على أوزان ثلاثيّة، أو ايليجيّة، أو أشباهها...))(١٠).

هذا التقديم يكشف عن إدراك أرسطو المبكّر لقضيّة تجنيس الأدب، ورغبته في

تجاوز إشكاليّة الأدب، بضرورة تجنيسه بوضع مصطلحات خاصّة به، وكتاب (فن الشعر) كما يقول تزفيتان تودوروف ليس موضوعه الشعر بل هو وصف لخصائص الأجناس الممثّلة، أوالمتخيّلة، ويعني بها الملحمة والدراما(١١)، فالأجناس الأدبيّة عند أرسطو تتمثل في: شعر الملاحم، والمأساة، والملهاة، فضلاً عن الديثرمبوس(١٢).

لقد شُغل النقاد بقضيّة الأجناس؛ لأنهم أدركوا بفطنهم: ((أنّ الجنس الأدبي هو موضع التقاء الشعريّة العامّة بالتاريخ الأدبي الحدثي، وهو بهذا المعنى موضوع محفوظ ممّا قد يكسبه شرف أن يصبح الشخصيّة الأساسيّة في الدراسات الأدبيّة))(١٣)، و(الدراسة) إذ تعتمد في متنها مصطلح(الجنس)، أو(الأجناس) بديلاً عن مصطلح (النوع)، أو(الأنواع)، فهي ملتزمة بما جاء في: (لسان العرب) الذي يرى أنّ (الجنس) أعمّ من (النوع)(١٤)، على الرغم من أنّها -الدراسة- وجدت ترادفاً في استعمال المصطلحين في أكثر من مرجع مهمّ مثل: مقدمة في النقد الأبي: د علي جواد الطاهر، والصوت الآخر: فاضل ثامر، ومعجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: سعيد علوش، ومن المراجع المترجمة: جامع النص: جيرار جنيه، ونظريّة الأنواع الأدبيّة: فنسنت، ونظرية الأجناس الأدبية: مجموعة باحثين: ترجمة عبدالعزيز شبيل(١٥).

والأجناس الأدبيّة التي هي إمّا معيارٌ، أو جوهرٌ مثاليٌّ، أو منوال قدرة، أو مجرد مصطلح تبويبي لا تناسبه أي إنتاجية نصيّة خاصّة(١٦)، إحدى القوالب التي تُصَبُّ فيها الآثارُ الأدبيّةُ(١٧)، لغرض سبكها، وإعطائها شكلاً نهائيّاً بملامح أدبيّة واضحة، وواحدة من أعقد المشكلات الجماليّة التي واجهت النقاد، وعلماء الجمال على مرّ العصور، فمنذ إفلاطون (٣٤٨ق.م)، وأرسطو حتى وقتنا الحاضر لم يكفّ

الدارسون عن فحص هذه المشكلة، ودراستها(١٨)، حتى غدا القول في الجنس الأدبيّ علماً له مقدماته، وقوانينه، وتطبيقاته، بل غدا موجّهاً من موجهات القراءة(١٩)، وصارت الكتابة فيها خطاباً ينطوي على محمولات فلسفيّة أيضاً، ولا سيّما في الزمن الحاضر الذي أزاح النص الإبداعي فيه الحدود بين الأجناس، وجعل فرصة الاختلاط بينها ممكنة في ظلّ نهوض مصطلحات جديدة مثل: الكتابة، والنص، والنص المفتوح.

إنّ السؤال الذي يدور في فلك هذه الدراسة، والذي بُنيت في جوهر دلالته أهم مسائله: هل عرف النقد العربي القديم الأجناس الأدبية؟، لقد سبقني إلى الإجابة عن هذا السؤال: نقاد، وباحثون أجد من الضروري أن أشير الى خطاباتهم التي اطّلعت عليها قبل ان تكتمل الصورة في ذهن المتلقي.

١. يرى د. محمّد غنيمي هلال أنّ قدامة بن جعفر له فضل الريادة في دراسة أجناس الأدب الشعريّة، وتبعه في ذلك نقاد كثيرون(٢٠)، وحين تتتبع ما وراء هذا الرأي تجد الناقد يريد بالأجناس الشعريّة: ((القصيدة، وما تتناوله من أغراض، وهي مقصورة في نقدهم على الشعر الغنائي، أو الوجداني من مدح، وهجاء، ورثاء، وافتخار...))(٢١)، والحق أنّ الناقد هنا لم يتحدث عن الأجناس الأدبيّة، أو الشعريّة وإنما تحدث عن الأغراض الشعريّة، وبين الاثنين بون شاسع، وكبير، وفي صفحة أخرى من الكتاب أكّد أنّ النقد العربي لم يعن بأجناس الأدب الموضوعيّة في النثر، كما لم يعرفها الشعر(٢٢)، في إشارة صريحة الى خلو النقد القديم من ظاهرة التجنيس، وواضح مما سبق أنّ الناقد لم يعن بقضيّة الأجناس الأدبيّة بالدلالة التي

يبحث عنها هذا الكتاب، فقد وقع في فخ الاضطراب المصطلحي حين عدّ الأغراض الشعريّة أجناساً أدبيّاً.

٢. يعتقد د. عبدالسلام المسدي أنّ مقولة الأجناس الأدبيّة دخيلة على قيم الحضارة العربية في مكوّناتها الإبداعية(٢٣)، وأنّ النقاد العرب المعاصرين يسقطون على الأدب العربي أنماطاً من التصنيف غريبة على روح التراث الحضاري حين يتحدّثون عن الأجناس الادبيّة(٢٤)، بمعنى أنّ ما يشاع عن وجود وعي نقدي قديم بفكرة الأجناس ما هو إلا إسقاط معاصر مستعار من النقد الغربي يظلّل مساحة وهميّة من خارطة النقد العربي القديم يستعيره النقاد المعاصرون.

٣. أمّا د.عبد العزيز شبيل فقد اطمأنّ: ((إلى أنّ الأدب العربي لم يسع إلى إرساء نظريّة أجناس أدبيّة؛ بسبب التعالق المتين بين اللغة العربيّة وفكرها))(٢٥)، ويضيف: ((ولا يذهبنّ بنا الظن إلى خلو الأدب العربي من (أجناس)، و(أنواع) ينقص من قيمته، فحتى وإن غابت عنه (أجناسه)، و(أنواعه) فقد امتلك –رغم ذلك– (نظريّة فنون أدبيّة)، أو بالأحرى (نظريّة بلاغة جامعة) تعتمد في تصنيفها على أجناس الكلام، وطبقاته، ومراتبها من (اللغة العليا))(٢٦)، بمعنى أنّه جعل من النظريّة البلاغيّة، وإجراءاتها بديلاً واقعيّاً عن مقولة الأجناس الأدبيّة مستبدلاً انجازاً ظاهراً للعيان، بانجاز لساني يمكن إخضاعه لتقسيمات الأجناس الأدبيّة.

واذا كان د. شبيل يقرّ بغياب الأجناس، والأنـواع، وحضور النظريّة البلاغيّة الجامعة بديلاً عن الأجناس لماذا سمّى كتابه: (نظرية الأجناس

الأدبيّة في التراث النثري...)، وهو يقرّ أن لا نظريّة تتحكم في صوغ أجناس الادب العربي؟.

٤. يرى د. صلاح فضل أنّ النقد العربي القديم قد غابت عنه فكرة التمييز بين الأجناس الأدبيّة بسبب اختلاط قضايا البلاغة القديمة، ومجافاتها لروح التصنيف العلمي السديد في عدم التمييز في المستوى بين أجناس القول المختلفة، وعدم الاهتمام بفروقها النوعيّة، فلا فرق عند البلاغي بين الشعر، والنثر في طبيعة اللغة، ولا أشكالها الفنيّة، ومن ثم فإنّ التصورات البلاغيّة العربيّة لم تستطع تنمية نظريّة محدّدة للأجناس الأدبيّة، ولم تقم بدورها في محاولة إثراء بعض هذه الأجناس بالكشف عن أشكالها، وخواصها المتميّزة، وتحديد مقوماتها الجوهرية⁽٢٧⁾.

٥. يؤكد الناقد فاضل ثامر أنّ نقدنا الموروث لم يشع استعمال مصطلحي الأجناس، والأنواع الأدبيّة بالدلالة التي نحن بصددها⁽٢٨⁾، من دون أن يحدّد لنا وجه الدلالة التي أشاعها ذلك النقد من جراء استعماله المصطلح.

٦. يشير د. مصطفى البشير طه إلى أنّ سبب انصراف النقاد العرب عن الإهتمام بالأجناس النثريّة اهتمامهم بجنسي الخطابة، والرسالة بسبب قيمتهما الوظيفيّة، فالخطابة مرتبطة بالغرض الديني في حين الرسالة ارتبطت –لا سيّما الديوانيّة منها– بالغرض السياسي المتعلق بالدولة⁽٢٩⁾، بمعنى أنّ عناية العرب بالخطب، والرسائل لأسباب دينيّة وسياسيّة حالت دون أن يتبنوا خطاباً تجنيسيّاً على مستوى النثر، فكيف بالشعر؟.

٧. يعتقد د. عبدالله إبراهيم أنّ النقد، وتاريخ الأدب العربي يكشفان ضآلة

العناية بالأجناس الأدبية، بل يكشفان حالة متوترة من عدم الاتفاق في التفاهم حول مجموعة ثابتة من الشروط والقواعد التي يمكن الإهتداء بها لصياغة نتائج مقبولة، وشبه نهائيّة تخصّ قضيّة الأجناس الأدبيّة(٣٠)، والحق أنّ الضآلة سمة لا يمكن القفز على حجمها، ووجودها في النقد القديم، لكنّ عدم الإتفاق لا يمكن إلا أن يكون سبباً رئيساً يفضي الى الحراك الفاعل في حياة الأدب، والنقد.

٨. وللدكتور أحمد محمد ويس رأيٌ مؤداه أنّه من العسير أن يجد المرءُ في تراث العرب النقديّ نظريّة واضحة المعالم في الأجناس الأدبيّة على الرغم من عراقة تلك الأجناس، لكنّ المرء إن عدم وجود النظريّة الواضحة فلن يعدم وجود كثير من الإشارات، والتقسيمات التي تحيل عليها(٣١).

الحق أنّ الرأي الأخير يقترب من حقيقة الحالة التي عاشها النقد العربيّ القديم الذي خلا من نظرية نقدية خاصّة بالأجناس الأدبيّة يمكن الرجوع إليها لتحديد جنسيات الأدب العربي، وخصائصه الفنية، لأن النظريّة: ((عمليّة كشف الأسس الفلسفية للأدب، سواء أ كان ذلك بطريقة الوصف الذي ينطوي تحت علم النقد، أم بطريقة الكشف الإبداعي في النظم والنثر))(٣٢)، وهذا ما لم يكن موجوداً في النقد العربي، ولكنّه في الوقت نفسه حوى إشارات كثيرة، وأفكاراً عديدة، ومقولات واضحة في قضيّة الأجناس الأدبية، وهي بالإحالة على زمانها، ومكانها مثّلت جذراً نقديّاً لا يمكن الاستهانة به، والقفز على دلالته، ولكنّه في كلّ منطلقاته لا يمكن أن يشكّل نظريّة متكاملة في الأجناس الأدبيّة.

إنّ غياب فكرة الأجناس، أو حضورها في النقد العربي القديم قضيّة لها علاقة

بالوعي الأدبي، والاجتماعي؛ لأنّ: ((المجتمع يختار، ويُسنّن الأفعال التي تتطابق أكثر مع إيديولوجيته لأجل ذلك فإنّ وجود بعض الأجناس في مجتمع ما، وغيابها في مجتمع آخر يكشفان هذه الايديولوجيا، ويتيحان لنا تحديد معالمها بيقين يقلّ، أو يكثر، وليس مجرد صدفة أنّ الملحمة كانت ممكنة في فترة ما، والرواية وجدت في فترة أخرى، والبطل الفردي في الرواية يعارض البطل الجمعي للملحمة: كلّ واحد من هذه الاختيارات يتوقف على الإطار الايديولوجي الذي يتم داخله))(٣٣)، وهكذا يمكن أن نجد أنّ فكرة الإعجاز القرآني مثلاً، وهي مسألة ذات إطار فكري (إيديولوجي) قد أسهمت في وجود بواكير التجنيس في النقد القديم كما سنرى في الفصول الآتية، وعلى الرغم من وجود كثير من الإشارات، والتقسيمات التي تحيل على فكرة التجنيس، وتطبيقاتها فإنّ الأسباب الحقيقيّة التي حالت دون أن تكون للنقد العربي القديم نظريّة محدّدة في بنية الأجناس يمكن إجمالها في:

اوّلاً: سبب خاص بالنقد العربي:

من مجمل الأقوال السابقة نرجع السبب الرئيس في غياب نظريّة أجناسيّة في النقد العربي إلى طبيعة النقد نفسه الذي دار حول موضوعات كثيرة لعلّ من أهمها: الطبع والصنعة، واللفظ والمعنى، والسرقات الشعرية، والذوق والصدق وغيرها من موضوعات النقد المعروفة، وهي بمجموعها تجاوزت مسألة التجنيس التي ظهرت ملامحها الأولى في القرن الثالث للهجرة، لتتخذ من النظم، والإعجاز، والبديع موضوعات لها مساس بالأدب العربي الذي كان المشتغلون به، ومتلقوه على علم واضح بطبيعة الأجناس نفسها.

ثانياً: تعقّد بنية الأجناس:

إنّ إطلاق القول في جزئيّات الأجناس الادبيّة في القرون الهجريّة الأولى كان أمراً غير ميسور على الناقد العربي بسبب من تعقيد تلك الأجناس، واعتماد بنيتها النقديّة على نظر يوازن بين الأجناس نفسها، فضلاً عن أنها كانت بعيدة عن طبيعة الخطاب البلاغي النقدي الذي عُرف به العرب، وقد شُغل بمعايير لسانيّة تختلف عن تلك التي بحوزة الحضارات المجاورة للعرب؛ ولهذا لم تظهر جزئيّات الأجناس إلا عند نقاد محدّدين، في إطار محدّد أيضاً.

إنّ النقد العربي عند القدماء شأنه شأن كلّ خطاب مرهون بزمانه، ومكانه من الطبيعي أن يخلو من بعض الموضوعات الدقيقة المعروفة في زماننا، على الرغم من أنّ الناقد يوم ذاك كان يتمتع بموسوعيّة واضحة، يأخذ من كلّ فن بطرف، ولو كان التخصّص الدقيق موجوداً لكانت الجهود النقديّة أثرى بكثير مما وصلت إلينا، على أنّ غياب نظرية الأجناس بإطارها الفلسفي - المعرفي ليس عيباً؛ لأنّ غياب النظريّة يوم ذاك رافقه حضور واضح لملامحها الصحيحة.

ثالثاً: غياب التكامليّة النقديّة:

إنّ غياب التكامليّة النقديّة التي مؤداها أنّ الناقد اللاحق غير معني بإكمال مقولات الناقد السابق قد أدّى الى تشتت الخطاب النقدي، وضعف القواسم الرابطة بين قسم من موضوعاته، فلو قدّر للناقد اللاحق أن يكمل نظرات الناقد السابق، وأن يضيف إليها لكانت صورة النقد العربي القديم في وضع آخر مختلف، فالنقاد الذين جاؤوا من بعد أبي هلال، والباقلاني مثلاً لم يكملوا مقولات الأخيرين النقديّة

الخاصّة بتجنيس الأدب، ولم يحاوروها وإنّما اجترها بعض، أو أعاد تكرارها بعض آخر من دون إضافة، أو تمحيص؛ ولهذا رفض الكثير من النقاد المعاصرين فكرة وجود نقد أجناسي عند النقاد العرب القدماء، وحجتهم غياب النص، ولعلهم لم يكونوا على دراية تامّة بمقولات التجنيس، أو جذورها على أقل تقدير.

رابعاً: المترجم السرياني:

كان أرسطو -كما مرّ- أوّل من حاول أن يضع معايير نظريّة للأجناس الأدبيّة حين قسّم في كتابه الشهير (فن الشعر) الأدب على ثلاثة أنواع: التراجيديا، والكوميديا، والملحمة موضحاً خصائص كلّ جنس(٣٤)، لكن المترجم السرياني حين ترجم الكتاب من السريانيّة لم يفهم بعض العبارات التي تولى ترجمتها إلى العربية؛ ولهذا فاتت على الناقد العربي القديم فرصة الإطلاع على هذا التقسيم، والإفادة منه مثلما أفاد من أشياء أخرى، فالمقابلة بين نصّ (فن الشعر)، وترجمات الفلاسفة: متى بن يونس القنائي (٣٢٨هـ)، والفارابي (٣٣٩هـ)، وابن سينا (٤٢٨هـ)، وابن رشد (٥٩٥هـ)(٣٥)، وتعليقاتهم تثبت خلوها تماماً من فكرة الأجناس الأدبيّة التي قال بها أرسطو.

وعلى الرغم من كلّ المقولات التي أشارت الى عدم عناية النقد القديم بقضيّة الأجناس الأدبيّة، وأنها دخيلة على النقد نفسه، وأنها غائبة، وأنّ النقد لم يشع دلالة مصطلحها بالمفهوم الذي نعرفه اليوم، وأنّ النقد يوم ذاك انصرف عن تلك المسألة بسبب أهميّة الخطابة، والرسائل الاستثنائيّة، وهيمنة البلاغة العربيّة الجامعة على طبيعة النسق الثقافي العربي، فإنّ الجميع فاتهم أنّ طبيعة النقد عند أيّ أمّة هي ليست بالضرورة صورة تتماهى وصورة النقد عند أمّة أخرى، وقديماً قال السيرافي (٣٦٨هـ)-بحسب ما نقل

أبو حيّان التوحيدي: ((إنّ لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها، وأفعالها، وحروفها، وتأليفها، وتقديمها، وتأخيرها، واستعاراتها، وتحقيقها، وتشديدها، وتخفيفها، وسعتها، وضيقها، ونظمها، ونثرها، وسجعها، ووزنها، وميلها، وغير ذلك ممّا يطول ذكره))(٣٦)، فكأنه كان في معرض الدفاع عمّا أريد.

أقول على الرغم من كل ما سبق عرضه فإنّ الخطاب البلاغي النقدي العربي قد احتوى على مقولات كثيرة يمكن أن نجدها متفرقة عند كثير من النقاد، أو مجتمعة في كتاب بعينه كلّها تحيل على جذر يتحرّى مسائل التجنيس الأدبي التي تلحق الشعر، والنثر يوم ذاك، لكنّها على قلّتها، وتشتّتها في مصادر شتى تفضي إلى تشكيل مدخل نقديّ يرتبط ((أشدّ الإرتباط بمفهوم الإبداع من جهة، وبمفهوم النقد من جهة ثانية، وبمفهوم تاريخ الأدب من جهة ثالثة))(٣٧)، إذا ما نُظر إليه اليوم من خلال ظروف إنتاجه المتعلّقة بزمانه، ومكانه القديمين، اي أنّ النقد العربي القديم خلال سنوات تفجره المعرفيّ، والإجرائيّ كان قد قال بمقولات أجناسيّة هي في حقيقة أمرها استجابة لطبيعة الحاجة النقديّة التي فرضت نفسها يوم ذاك من زاويتين متقاربتين:

الأولى: استحضر فيها الناقدُ القديمُ فكرة الأجناس الأدبيّة، وهو يعاين لغة النصّ القرآنيّ الكريم، ويحاول تحديد لغته من خلال قراءة الأجناس الأدبيّة المعروفة يوم ذاك لكي يثبت أنّ جنسيّة القرآن لا علاقة لها بالأجناس الأدبيّة السائدة، وقد مثّل هذه الزاوية خير تمثيل الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه (البيان والتبيين) الذي كان من أوائل المعتنين بفكرة الأجناس الأدبيّة فقد رأى أنّ: (أقسام تأليف جميع الكلام) تنقسم على: كلام موزون أراد به الشعر، وكلام منثور أراد به الخطب، والرسائل وغيرهما، وكلام منثور غير مقفى على مخارج الأشعار، والأسجاع أراد به القرآن الكريم(٣٨)، كما في الخطاطة الاتية:

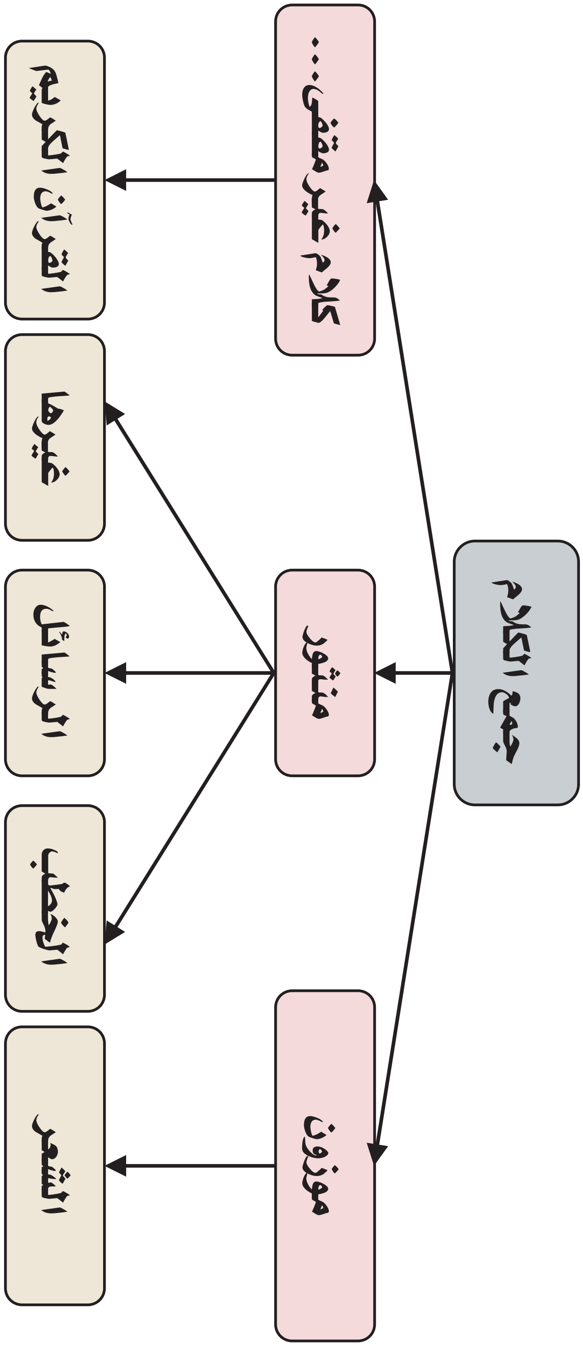
جمع الكلام
موزون
منثور
كلام غير مقفى...
الشعر
الخطب
الرسائل
غيرها
القرآن الكريم

(خطاطة الجاحظ)

والجاحظ في هذه التقسيمات سجّل التفاتة نقديّة مبكّرة لها ميزتها التي تقرأُ اليوم على وفق التصورات النوعيّة التي أصابت الأدب خلال العصور، وكان قد انطلق من نظرة كليّة احتوت (الكلام) كلّه في إحالة واضحة على أنّه كلام الله تعالى، وكلام البشر بخلاف أغلب البلاغيين: النقاد فقد عدّ الجاحظ القرآن الكريم، والشعر، والنثر من (جميع الكلام)، وهذا موقف يتواءم ومعتقد جماعته المعتزلة التي رأت أنّ المظاهر البلاغيّة في القرآن الكريم هي نفسها في كلام سائر البشر، وأنّ معايير الجمال القرآني هي معايير الجمال في أي نص أدبي بشري(٣٩)، فضلاً عن أنّه خصّ الكلام الإنساني الأدبي بمستوى الجنس، والنوع، وترك للمستقبل حريّة تسمية الأنواع الجديدة على وفق عنوان (غيرها)، في إشارة واضحة الى ما سيظهر مستقبلاً من آداب.

وكان الجاحظ قد نقل رأي سهل بن هارون: ((اللسان البليغ والشعر الجيّد لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر، وبلاغة القلم))(٤٠)، فكأنه بهذا النقل الذي تبناه كان مؤمناً بضرورة إقامة الحد بين جنسي الكلام: اللسان البليغ أي النثر، والشعر عند مبدع واحد، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر، وبلاغة النثر في نص واحد.

لقد أشار الجاحظ صراحة إلى صعوبة اجتماع الشعر، والنثر في لسان واحد رادّاً تلك الصعوبة إلى طبيعة كلّ مبدع، وإبداعه فبعضهم على ما رأى: ((يكون له طبع

في تأليف الرسائل، والخطب، والأسجاع، ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر))[٤١]، ويدلُّ الجاحظ على صدق رأيه بالإشارة إلى عبدالحميد الكاتب (١٣٢هـ)، وابن المقفع (١٤٢هـ) اللذين: ((مع بلاغة أقلامهما، وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله))[٤٢]، وهذا يعني أنّ سبب إبداع الأجناس عند الجاحظ نفسيّ.

والجاحظ الذي أنكر اجتماع الشعر والنثر في لسان واحد، لم ينكر أن يكون الشاعر خطيباً، أو الخطيب شاعراً، بدليل قوله في وصف (البعيث): ((لئن كان مغلباً في الشعر لقد كان غلب في الخطب))[٤٣]، وكان قد وصف أبا الأسود الدؤلي وصفاً يحيل على اجتماع الشعر، والنثر في لسانه، فقد كان الدؤلي على رأيه: ((خطيباً عالماً، وكان قد جمع شدة العقل، وصواب الرأي، وجودة اللسان، وقول الشعر والظرف))[٤٤].

ويبدو أنّ الجاحظ ما كان معنيّاً بتقصي فكرة الأجناس الادبيّة في طور تشكلها الجنيني الذي نبحث عن أولياته في هذه الدراسة، أو علاقاتها التاريخية؛ إنّما كان مأخوذاً بتحديد الطبيعة الجنسيّة للغة القرآن الكريم، وقد تحدث على هامشها عن الأدب العربي، وأجناسه التي اجتهد في تحديد طبيعتها فسجّل -مبكّراً- إشارات دالّة على مسألة ستظهر أهميتها فيما بعد.

الأخرى: استحضر فيها الناقد القديم فكرة الأجناس الأدبيّة من فضاء الحاجة النقديّة للأجناس نفسها، وقد مثّلها احسن تمثيل ابن وهب الكاتب (٣٣٥هـ) فقد تقصّى جذور الأجناس الأدبيّة كما نفهمها اليوم في كتابه (البرهان في وجوه البيان) ففي باب (تأليف العبارة) قال: ((اعلم أنّ سائر العبارة في لسان العرب، إمّا أن يكون منظوماً، أو منثوراً، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام))[٤٥]، والشعر ينقسم عنده أقساماً منها: القصيد، والرجز، والمسمّط، والمزدوج[٤٦]، في إشارات دالّة على الشكل النصيّ للشعر.

وذكر ابن وهب أنّ: للشعراء فنوناً من الشعر كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة، هي: المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو، ثم تتفرّع عن كلّ صنف من تلك الأصناف فنون فيكون من المديح: المراثي، والافتخار، والشكر، واللطف في المسألة، وغير ذلك ممّا أشبهه، وقارب معناه معناه، ويكون من الهجاء: الذم، والعتب، والاستبطاء، والتأنيب، وما أشبه ذلك، وجانسه، ويكون من الحكمة: الأمثال، والتزهيد، والمواعظ، وما شاكل ذلك، وكان من نوعه، ويكون من اللهو: الغزل، والطرد، وصفة الخمر، والمجون، وما أشبه ذلك وقاربه(٤٧).

فابن وهب الكاتب في تحليلاته السابقة ينطلق من الشكل الأدبي إلى المضمون في ضمن فضاء جنس أدبيّ واحد هو الشعر، ثم يعاود البحث في تجنيس النثر أيضاً على وفق الخطاطة الآتية:

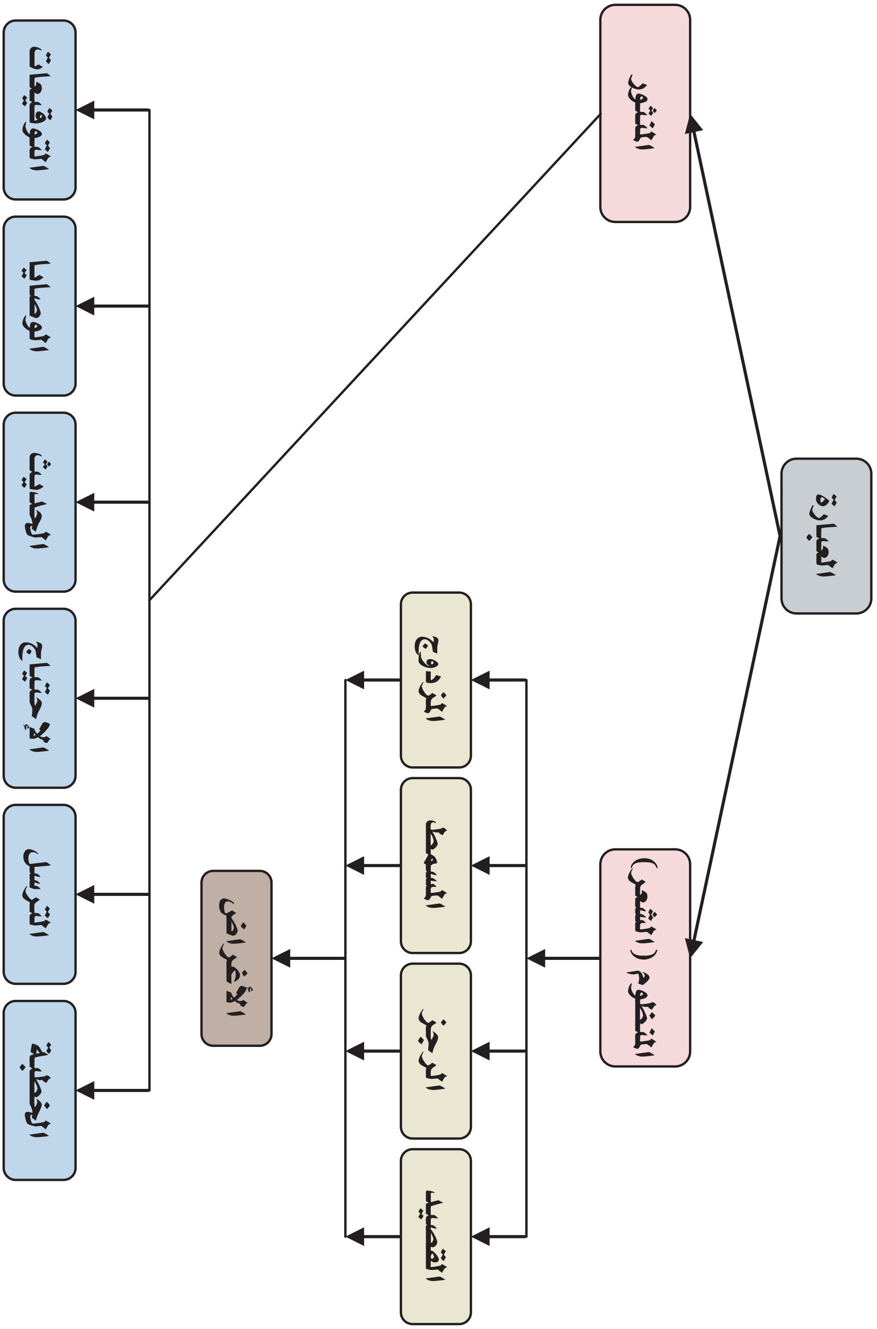
العبارة
المنثور
المنظوم (الشعر)
القصيد
الرجز
المسمط
المزدوج
الأغراض
الخطبة
الترسل
الإحتياج
الأحاديث
الوصايا
التوقيعات

(خطاطة ابن وهب)

والمنثور عند ابن وهب إمّا أن يكون خطابة، أو ترسلاً، أو احتجاجاً، أو حديثاً(٤٨)، والاحتجاج أراد به الجدل، أو المناظرات، أمّا الحديثُ فالمقصود به على ما رأى: ((ما يجري من الناس في مخاطباتهم، ومجالسهم، ومناقلاتهم))(٤٩)، ثم زاد على الأجناس السابقة: الوصايا، والتوقيعات من دون أن يفصّل في طبيعة نصوصها(٥٠)، فهو في تفريعاته النثريّة لم يتكئ على ناقد سابق، وإنما كان مبتدعا للتقسيم، والإضافة أيضاً.

واقع الأمر أنّ تقصي (ابن وهب) لقضيّة الأجناس الأدبيّة عند العرب هو الأقرب إلى التحديد الصحيح؛ لأنه قرأ الأدب في يومه ذاك، وجاء بتقسيماته المتطابقة مع واقعه المعلن، من دون أن يعتمد على مقولات السابقين، وهناك من المعاصرين من يرى أنّ: ((تصنيف ابن وهب هو أدنى التصنيفات الى الكمال، وإن كنا نأخذ عليه إغفاله بعض الأنواع، وكذا إغفاله بيان موقع القرآن من أجناس الكلام المعروفة إذ ذاك))(٥١).

ويرى د. رشيد يحياوي أنّ تصنيف ابن وهب الانتقائي لا يغامر بنزعة إحصائيّة، بل يترك تصنيفه مفتوحاً بدليل قوله: (منها)، مما يعني أنّه لن يقيم تصنيفه إلا على بعض النماذج التي يظهر أنه انتقى المعروف منها، حيث بدأ بالقصيد، ثم أعقبه بالرجز، فالمسمط، والمزدوج، معتمداً عنصري الوزن، والقافية للتمييز بينها(٥٢).

لقد اجتهد (ابن وهب) في مسألة كان القول فيها يوم ذاك لا يتأتى إلا لذوي الفكر النيّر، والعقل المنفتح على التطورات التي تصيب شكل الأدب، وتمتد الى مضامينه أيضاً، فليس من السهولة على ناقد قديم أن يتملى الشكل الأدبي ليعبّر عن عناية مخصوصة بالشعر، والنثر بوصفهما جنسي العبارة الأدبيّة، ثم يربط الشعر بمضامينه التي هي أغراض الشعر الكبرى، أو صنوفه بحسب تسميته، ليدل على ما يخرج منها من فنون.

والمقولات الأجناسيّة العربيّة بعامّة التي ظهرت عند نقاد اخرين التي لا مجال لذكرها في هذه المناسبة تشكّل اليوم جذراً نقديّاً يمكن الوقوف عند عتباته المفضية إلى قراءة نمط من التفكير الذي لا يمكن إهماله، أو القفز على منجزه، مهما كانت درجة تشخيصه النقدي، بل التدقيق في طبيعة تشكّله اللسانيّ الذي يحيل على مجموعة أفكار يُنظر إليها –اليوم– على أنها جزء من خطاب لعلّنا نكشف عن قسم منها في دراسات قادمة، والله الموفق.

... الخاتمة...

١. كان للقرآن الكريم أثره الواضح في دفع النقاد العرب للحفر في جذور الأجناس الادبيّة حين هداهم إلى الكشف عن العديد من الأنواع قصد تمييز القرآن عنها، وإبراز تفوقه البلاغي عليها.

٢. كان الجاحظ من أوائل المتنبهين على أهمية فكرة التجنيس فقد رأى أنّ أقسام تأليف جميع الكلام تنقسم على: كلام موزون أراد به الشعر، وكلام منثور أراد به الخطب، والرسائل وغيرهما، وكلام منثور غير مقفى على مخارج الأشعار، والأسجاع أراد به القرآن الكريم، وهو في هذه التقسيمات سجّل التفاتة نقديّة مبكّرة لها ميزتها إذ اثبت أن الوعي الأجناسي جاء مقترنا بالبحث الخاص بلغة النص القرآني الكريم، ومحاولة تجنيس لغته من خلال قراءة الأجناس الأدبية المعروفة لإثبات أن جنسية القرآن لا علاقة لها بالأجناس السائدة، وإنما هي جنسية خاصة.

٣. كان الجاحظ قد عدّ القرآن الكريم، والشعر، والنثر من (جميع الكلام)، وهذا موقف يتواءم ومعتقد جماعته المعتزلة التي ترى أنّ المظاهر البلاغيّة في القرآن الكريم هي نفسها في كلام سائر البشر، وأنّ معايير الجمال القرآني هي معايير الجمال في أي نص أدبي بشري.

٤. وكان ابن وهب الكاتب قد تقصّى جذور الأجناس الأدبيّة كما نفهمها اليوم في كتابه (البرهان في وجوه البيان) ففي باب (تأليف العبارة) رأى أنّ سائر العبارة في لسان العرب، إمّا أن يكون منظوماً، أو منثوراً، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام والشعر ينقسم عنده أقساماً منها: القصيد، والرجز، والمسمّط، والمزدوج، في إشارات دالّة على الشكل النصيّ للشعر.

... الاحالات...

١) نظرية الأجناس الأدبية: مجموعة مؤلفين: ترجمة: عبدالعزيز شبيل: ٩٣.

٢) معجم مصطلحات نقد الرواية: لطيف زيتوني: ٦٧: ط١: مكتبة لبنان: ٢٠٠٢.

٣) نفسه.

٤) ينظر: نفسه: ٧١.

٥) ينظر: نظرية الأدب: أوستن وارين ورينيه ولك: ٢٩٥ -٢٩٦.

٦) نظرية الأنواع الأدبية: فنسن: ٢٢: ١. ترجمة حسن عون.

٧) ينظر: نظرية الأجناس الأدبية: ٧.و نظرية الأدب: ١١.

٨) ينظر: إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية في النقد: د.فتحية عبدالله: عالم الفكر: م ٣٣: ١٧٣: ٢٠٠٤.

٩) ينظر: نظرية الأدب: ١١.

١٠) فن الشعر: ٦, ٥.

١١) الشعرية: ١٢.

١٢) ينظر: فن الشعر: ٣، والديثرمبوس نشيد يُتغنى به في أعياد اليونان الخاصة بآله الخمر.

١٣) أصل الأجناس الأدبية: تودوروف: ترجمة محمد برّادة: مجلة الثقافة الأجنبيّة: ع١: س٢: ١٩٨٢: ٤٨: بغداد.

١٤) لسان العرب: مادة جنس، ونوع.

١٥) ينظر: مقدمة في النقد الأبي: ١٤، الصوت الآخر: ٢٥١، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ٢٢٣، جامع النص: ٧٣، نظرية الأنواع الأدبية: ٢٢: ١، ونظرية الأجناس الأدبية: ١٥.

١٦) نظرية الأجناس الأدبية: ١٣٠.

١٧) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة، وكامل المهندس: ١٤١.

١٨) ينظر: الصوت الآخر..: فاضل ثامر: ٢١٥.

١٩) ينظر: مرايا نرسيس: حاتم الصكر: ١٦.

٢٠) ينظر: النقد الأدبي الحديث: د.محمد غنيمي هلال: ١٦٩.
٢١) النقد الأدبي الحديث: ١٦٩.
٢٢) النقد الأدبي الحديث: ١٦٩.
٢٣) ينظر: النقد والحداثة: د.عبد السلام المسدي: ١٠٨.
٢٤) نفسه: ١٠٩.
٢٥) نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري: ٤٨١.
٢٦) نفسه: ٤٨٥.
٢٧) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ١٠٣.
٢٨) ينظر: الصوت الآخر: فاضل ثامر: ٢٥٣.
٢٩) مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم: ٨٩.
٣٠) ينظر: موسوعة السرد العربي: ج١: ١٨.
٣١) ينظر: ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي: ١٧٣.
٣٢) النظرية النقدية عند العرب: د.هند حسين طه: ١٤.
٣٣) اصل الأجناس الأدبية: تودوروف: ٤٨.
٣٤) ينظر: فن الشعر: ٣ وما بعدها.
٣٥) للمزيد عن آراء الفلاسفة النقاد ينظر: فن الشعر: أرسطو: ٨٥، وما بعدها.
٣٦) كتاب الإمتاع والمؤانسة: ١١٦، ١١٥.
٣٧) الأجناس الادبيّة تخوم أم لا تخوم: مجلة علامات في النقد: ع٣٨: مج١٠: ٢٠٠٦: ٢٤٩، ٢٤٨.
٣٨) ينظر: البيان والتبيين: ٣٨٣: ١.
٣٩) ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة: د. عماد حسن مرزوق: ٢١.
٤٠) البيان والتبيين: ٢٤٣: ١.
٤١) البيان والتبيين: ١: ٢٠٨.
٤٢) البيان والتبيين: ١: ٢٠٨.
٤٣) البيان والتبيين: ٤: ٥٣.
٤٤) نفسه: ٢١٩: ١.
٤٥) البرهان في وجوه البيان: ابن وهب الكاتب: ١٦٠.
٤٦) ينظر: نفسه: ١٦٠، ١٩١.

٤٧) البرهان في وجوه البيان: ١٧٠-١٧١.
٤٨) ينظر: البرهان في وجوه البيان: ١٩١.
٤٩) نفسه: ٢٤٦.
٥٠) ينظر: نفسه: ٢٠٢: ٢٠٣.
٥١) ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي..: د احمد محمد ويس: ١٨٣.
٥٢) الشعرية العربية: الأنواع والأغراض: د.رشيد يحياوي: ١٩.

... المصادر والمراجع ...

١) إشكالية تصنيف الأجناس الأدبية في النقد: د. فتحية عبدالله: عالم الفكر: م ٣٣: ٢٠٠٤.

٢) الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة: د. عماد حسن مرزوق مكتبة بستان المعرفة الإسكندرية مصر ٢٠٠٥.

٣) البرهان في وجوه البيان ابن وهب الكاتب تحقيق د احمد مطلوب ود خديجة الحديثي ساعدت جامعة بغداد على طبعه ط١٩٦٧: ١.

٤) بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل: سلسلة عالم المعرفة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت١٩٩٢.

٥) البيان والتبيين الجاحظ تحقيق عبدالسلام محمدهارون:الناشر مكتبةالخانجي بمصر ومكتبة المثنى في بغداد ط٧, ١٩٦٠.

٦) ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي: بحث في المشاكلة والاختلاف: د.احمد محمد ويس: منشورات وزارة الثقافة سورية٢٠٠٢.

٧) الأجناس الادبيّة تخوم أم لا تخوم: مجلة علامات في النقد:ع٣٨: مج١٠: ٢٠٠٦.

٨) الشعرية: تودوروف: ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة: الدار البيضاء: المغرب ١٩٨٧.

٩) الشعرية العربية: الأنواع، والأغراض: رشيد يحياوي: أفريقيا الشرق: المغرب.

١٠) الصوت الآخر: الجوهر الحواري للخطاب الأدبي: فاضل ثامر: دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٢.

١١) فن الشعر: أرسطو طاليس: تحقيق د. عبدالرحمن بدوي دار الثقافة- بيروت لبنان.

١٢) مرايا نرسيس: حاتم الصكر: المؤسسة الجامعية للدراسات -بيروت ١٩٩٩م.

١٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس: مكتبة لبنان ط٢: ١٩٨٤.

١٤) معجم مصطلحات نقد الرواية: لطيف زيتوني: ط١: مكتبة لبنان: ٢٠٠٢.

١٥) مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم: د. مصطفى البشير طه: اليازوري للنشر والتوزيع الاردن٢٠٠٩.

١٦) موسوعة السرد العربي: ج١: د.عبد الله إبراهيم: المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: طبعة موسعة: ٢٠٠٨.

١٧) نظرية الأجناس الأدبية: كارلفييتور، وآخرون: تعريب: عبدالعزيز شبيل: النادي الأدبي الثقافي بجدة ط١: ١٩٩٤.

١٨) النظرية النقدية عند العرب: د. هند حسين طه: وزارة الثقافة والإعلام العراق: دار الرشيد: ١٩٨١.

١٩) النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال: دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٧.

٢٠) النقد والحداثة: د. عبدالسلام المسدي: دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت: ط١٩٨٣: ١.